

## الاديب العربي بين الحرية والمجتمع

بل هو مفيد أيضا من السلطة الاجتماعية : فكما لا يجوز له ان يمس الحرمات السياسية ، لا يجوز له أن يتعرض لتحرّات الاجتماعيه بسوء ، وهي التكاليد والمعتقدات ، والعلاقات المنحرفة . فالمجتمع يؤله ويشير به ان نمس تقاليد ومعتقداته وعلاقاته بسوء . والاديب او المتكلم عندنا يشعر بالحاجة الى التغيير ويريد ان يهز المجتمع من اعماقه بالتحليل ولكنه يخشى ان يدخل في صدام مع المجتمع ومع السلطة . لكانه ينتظر ان تطلب اليه السلطة السياسية او الاجتماعية ان يتناول تشریح أوضاعهم بمقصد وهو آمن مطمئن ، بل مشكور سلفا على ما سيفعل .

وهذا خطأ في التصور والسلوك معا .

فالتصور اولا لانه يتصور حرية العمل ، حرية في ان يكتب عن المجتمع لا الى المجتمع ويتصور الكتابة عن المجتمع نقدا للحكام حتى يمنحوا الحرية السياسية للمجتمع فيحتج كما يشاء ويتظاهر متى اراد . وان منعت الحكومة من هذا الكلام عن الشعب يفضل الانزواء في احسن الحالات او بيع ضميره الى السلطة في اسونها ، فيمجد الطفيلان ويتلمس المآذير لسلوك السلطة وتصرفها . والتصور الصحيح للحرية هو ما حلله سارتر بكثير من الدقة وهو ان لا نكتب عن الشعب ونوجه كتابتنا الى السلطة السياسية دفاعا عنه وهو لا يدري ، لا نكتب عن الشعب شفقة ورحمة ونتصادم مع الحكام من فوق رأس الجماهير وعسى غيبسة مطلقة عن وعيهم .

التصور الصحيح لتحرية هو ان نكتب للجماهير لا عنهم ، نتوجه اليهم لا الى حكومتهم . ونكتب للجماهير لا لنحرضهم او ننصحهم او نطهيم المواضع السياسية بل نتوجه اليهم فقط بتصوير حالهم ونموضع وضعهم ونصعد هذا الوضع عندهم من حالة الشعور الغامض الى حالة الادراك الواعي . لان المجتمع بعد هذا الوعي سيتولى هو الدفاع عن حريته ، ويعرف الطريق الى نيلها . ان الطرفين المتقابلين في وضعنا الراهن وعلى ضوء ما نطرح به مشكلة حرية الاديب هما الحكومة والكتاب ، الحكومة مطالبة ، والكتاب مطالب . اما الطرف الرئيسي صاحب الحق فهو غائب لم يتوجه اتيه احد في الموضوع . انه موضوع حديث ، وليس صاحب كلمة ، اي ليس موجودا . وهذا التصور للحرية يتبناه كثير من ادبائنا المخلصين الصادقين ، ولكنسه موقف يفر بالمجتمع اكثر مما ينفعه لان الكتاب هنا يتوجه الى السلطة السياسية شكلا ويكتب عمليا لامثاله من المثقفين . وقد يحصل على لقب كاتب تقدمي او ثوري ثم هو يشعر بالرضى عن نفسه لانه ارضى ضميره بالسخاء الذي اعطى به جهدا في الكتابة عن الشعب . وخاصة عندما يكتب الكاتب عن الشعب وهو يجهل تفاصيل هوميه ولم يشعر بها ولم يعيشها ، انه هنا يصبح متبرعا بمواقفه الانسانية وفنه الادبي على الطبقات الشعبية من بعيد . وجهله ببيئة الشعب الحقيقية تجعله يزيف عن غير قصد مطالب الجماهير الحقيقية العميقة ، فيكتفسي بالمناداة العامة مثل الحرية والعدالة ، ولكنه في كل هذا المجهود لا يصور حالة الشعب ، في تفاصيلها للشعب حتى يتشربها المجتمع بكل اعماقه ، ويتولى بنفسه تغيير اوضاعه معتمدا على استقلاله الفكري وعلى وعيه بان القضية قضيتيه . ويبقى فضل الكتاب انه بعث فيه الوعي وصيره ينفذته الفكرية قادرا على تغيير اوضاعه بنفسه ، بل

نحن كدولة ومجتمع ومثقفين ما زلنا نعلم ونبحث عن طريقنا في ضباب من الافكار والرؤى المخنفة ، ولا نطمح الى المساهمة لا في المجال الثقافي ولا في مجال النظريات الاجتماعية والسياسية بشيء كبير فيما سبقنا اليه اخواننا في المشرق العربي منذ عشرات السنين من بناء لصرح ثقافة اجتماعية ممكنة . ولكننا ، سواء في المجال الثقافي او الاجتماعي والسياسي نحاول بكل جهدنا ان لا نخطيء في رسم الخطوات الاولى ، لانها هي التي يتوقف عليها المصير الاخير . ونحذر كل الحذر ان لا نضع الحجرات الاساسية وضعا منحرفا ، حتى لا نقع البناية على رؤوس اجيالنا المقبلة .

واول ما نحاول ان نبدأ به في هذا الجهد المتواضع ، ان نبيّن مشاكلنا بوضوح ونلمس مواقع ارجلنا بحذر ، ونطرح قضايانا طرحا صحيحا . ولكننا بعد ان نتأكد من صحة الطرح وسلامة التصور نمضي الى العمل بحزم وثقة في النفس .

وعلى هذا فاننا استسمحكم العذر ان وجدتم في كلمتي كثيرا من اللاحاح في محاولة حصر مشكلتنا الثقافية ، لان طرحها بوضوح وشجاعة هو الذي يعيننا على ان نعرض لها على حل صحيح في النهاية . كما اعتذر لكم سلفا عما يمكن ان تلاحظوه من جهلي في الثقافة الادبية المتخصصة ، فاننا نست ادبيا بالمعنى المتعارف عندنا من معنى الاديب ، اي لست قصاصا ولا شاعرا ولا روائيا ولا ناقدا للنص او الشعر او الرواية ، وانما انا فقط مدرس فلسفة . لكني اميل الى العناية بالجانب الاجتماعي من الفلسفة : السياسة والاخلاق وعلم الاجتماع والثقافة ومن هذا الباب الاخير ، اذا سمحتم لي ، سأطرح مشكلة الاديب العربي بين الحرية والمجتمع .

وقضية حرية الكاتب أو الاديب كثيرا ما نتخذها هي وقضية الامية في مجتمعنا ذريعة لانقطاعنا عن هذا المجتمع . والحق ان الضفط المفروض على ادبائنا هو كبت مفروض فعلا وهو في كثير من الحالات ليس كبتا شريفا ، او في صالح المجتمع حقا ، وانما هو كبت يفترق الى اثنين وفقا للمبادئ الخلقية التي تسيّر السياسة عادة وان لم تحترم دائما في اي بلد . ومع ذلك لنفتح هذا الملف ونفحصه جيدا : يقول الدكتور الحبيب الجنتاني الاستاذ بكلية الاداب بالجامعة التونسية ، بعد ان يستعرض مفهوم الحرية في كل من العالم الماركسي والعالم الرأسمالي والعالم الثالث :

« اعتقد ان من اكبر المشاكل التي تعترض الثقافة العربية المعاصرة هو تحديد الحريات في بعض بلدان العالم العربي ، وانعدامها تقريبا في بعض البلدان الاخرى ، وهذا ما جعل الثقافة العربية المعاصرة والمثقف العربي الذي يمثل هذه الثقافة العربية المعاصرة في وضع غريب ، شاذ ، فوقه اما ان يكون غريبا متناقضا مذبذبا ، واما ان يكون نزيها صادقا مع نفسه يؤمن بمبادئه ، فيعزل ، ويصبح دوره في المجتمع هامشيا ، واما ان يسلك طريق الانتهازية ، محاولا تبرير انتهازيته هذه فيما يكتب ويقول . وكل هذه الاوضاع الشاذة ليست في خدمة الثقافة العربية المعاصرة . ان تحديد الحرية بالنسبة للمثقف العربي له انعكاسات مباشرة على الثقافة العربية المعاصرة » .

الحق اننا نذهب الى اكثر من هذا في مسألة الحرية وهو ان الكاتب العربي المعاصر لا يجد نفسه مقيدا من السلطة السياسية فقط

وفادرا على احداث التغيير في الاتجاه الذي اصبح يعرفه وليس في الاتجاه الذي تتصدق به عليه السلطة تحت نداءات السخاء التعممي والانساني التي اصدرها الكاتب للسلطة .

والضررة الاخيرة لهذا التصور الخاطيء لحرية الكاتب هو انه لم يصور المجتمع للمجتمع حتى يغير نفسه بنفسه ، واذا توجه مباشرة الى السلطة الحاكمة بدلا من التوجه الى المجتمع فان مجهوده سيتعرض لاحد خطرين احدهما مر كما يقول ابو فراس : اما ان تسكنه السلطة السياسية وتمنعه من الكتابة فيحرم منها المجتمع المقبل كما حرم منها المجتمع الراهن ، ولا تستطيع الجماهير ان تدافع عنه لانها لم تشعر به ولم تعرف موافقه ولا اسباب تصادمه مع الحكم فيذهب ضحية باردة ، ويكون مصيره في هذه المعركة الفاشلة كمصير قائد يحارب وحده ، وجيشه نائم في الثكنة .

والاحتمال الثاني ان تستجيب السلطة لتحقيق الحرية التسيي يطالب بها الكاتب للمجتمع ، ولكنها تأتي حرية لا يفدرها المجتمع ولا يعرف قيمتها ، وقد يستعملها استعمالا سيئا ، او يتصرف فيها تصرف السفيه في ثروة لم يتب في جمعها بكده ، فيبذرهما ويعود تبذيرها على مصيره باشنع وسائل الطفيلان من جديد ، ولا يجد الكاتب والمفكر والاديب بعد ذلك مناصبا من النعمة على المجتمع نفسه والانضمام الى صفوف القوة الحاكمة والتمتع معها بثروات الحكم على قبر المجتمع .

ان الحرية الاولى التي يجب ان يعيها الاديب والمفكر ليست حرية المجتمع السياسية ، بل حرية المجتمع الواعية . بحيث قد لا يتعرض الكاتب فيها للمناعب السياسية ولكنه يتعرض للمناعب اشد تتعلق بمهنته وابتقانه ، فيتعرف ، بعد الثقافة الفلسفية الضرورية ، الى تفاصيل ودقائق حياة المجتمع ويصورها بدقة وواقعية وعق يتجاوز المبادئ العامة والمواظ السطحية يصور القوانين المطبقة على حياة الناس في الشارع والعمل والادارة ويصور محاكمة في المحاكم تذهب فيها امرأة مفرورة ضحية لتعصب اقطاعي ضد العنصر النسائي ، ويصور في الحياة العائلية عتق فريق من المجتمع وقد التوى الى الورداء ، وفريق اخر يتطلع الى الامام ، وكيف يتحكم الاموات في مصائر الاحياء كما يقول اوغست كونت ، ويصور المصلحة الخاصة عند التاجر او الموظف وقد طفت على المصلحة العامة .

ويصور النفاق الاجتماعي عند رجل الدين ، وهو يعيش بافواله في واد ، وباعماله في واد اخر .

ان هذا التصور مهما كان محايدا ، ولكنه بالغ الرقي من حيث الانقان الفني ، هو النداء الحقيقي الى الحرية ، وهو الذي سينطلق منه المجتمع في معركته من اجل تغيير اوضاعه كلها لا السياسية او الاجتماعية وحدهما .

ويبلغ الكاتب ذروة الالتزام عندما يتخذ من كل ذلك موقفا ، مهما كانت فنية الموقف ، يساعد المجتمع على تبيين سبيله نحو المستقبل . اما الخطأ في السلوك ، وهو ناشيء عن الخطأ في التصور ، فيتمثل في أن الاديب في بلادنا العربية بما انه لا يعتبر عملية الوعي الاجتماعي معركة ، هو طرف فيها ، فانه لا يريد ان يصاب بسوء في هذه المعركة . انه يتصور حرية التعبير تختلف طبيعتها عن طبيعة الحرية السياسية للمجتمع ، بحيث يجب ان تمنح له منحا ، ولا ينتزعها ولا تذهب ضحيتها اجيال واجيال من الكتاب والادباء ورجال الفكر . وهو عندما يطالب بحرية التعبير يطالب بها بصوت خافت كانه غير واثق من حقه في نيل هذه الحرية ، أو غير متأكد من قوته في المعركة ، فيبدأ المعركة بنفسية حثرة قبل المعركة . لا لانه اقل شجاعة مادية بدليل انه كان يمتلك هذه الشجاعة في معركة التحرير الوطني ضد الاجنبي المحتل . ولكن الفرق بين شجاعته مع العدو ، وخفوت صوته مع الحكومة الوطنية ، هو وثوقه من وجود الشعب الى جانبه في المعركة ضد العدو ، وعدم وثوقه من وجود الشعب

الى جانبه في صراعه مع حكومته الوطنية من اجل حرية التعبير . ان الموقف الصحيح في المطالبة بالحرية هو ان نتصور ان لها ثمنا ونقبل بدفع هذا الثمن ، وان نتصور بعد ذلك ان حليفنا الوحيد في المعركة ، هو مجتمعنا . وقبعا هنا تقع في مشكلة الدور والسلسل : لا نستطيع ان نكسب معركة حرية التعبير الا اذا وقف الشعب الى جانبنا فيها ، ولكن الشعب لا يمكن ان يقف الى جانبنا الا اذا توفرت حرية التعبير لتجنيد ، وبعبارة اخرى : يجب ان تسمح لنا السلطة السياسية بحرية التعبير حتى نستطيع ان تجند الجمهور ليؤيدنا في مطالبة السلطة السياسية بحرية التعبير .

ويعرفون معي بان هذا المنطق غير مستقيم ولا يقف على ساق ثابتة ، انه ليس الا هروبا من الحقيقة التي ليس منها بد ، وهي قبول احد امرين : ان نصارع من اجل حرية التعبير ، واما ان نقبل بالهزيمة قبل ان نخوض المعركة ، كما نفعل الان ، ونسكنين للامر الواقع . ثم ان وضع المشكلة بهذه الطريقة يتناول في الحقيقة جزء من الابداء العرب الذين يلافون اضهادا حقيقيا في بلدانهم اما الجزء الاخر منهم وهم لا يستنون ، او يجب ان لا يستنوا من هذا الاضهاد لانه لا يوجد بالشكل الذي نريد ان نتصورها عليه وان هم لم يملكو حق حرية التعبير في انتقاد سلوك الحكومة السياسي ، فهم يملكون نظما حق تصوير المجتمع للمجتمع ، كما فلنا ، ليتولى هو تغيير مصيره السياسي .

ان فقدان حرية التعبير اذا كانت بالنسبة للبعض منا معركة سياسية حقيقية ، فهي ليست كذلك بالنسبة للبعض الاخر .

ومع ذلك فاننا اذا كنا نغرق في درجة معاناة مشكلة حرية التعبير ، فاننا نلغي كلنا في درجة واحدة من حيث التشكي من فقدان هذه الحرية وخاصة من حيث استعمال هذا التشكي كدرية لانقطاعنا عن المجتمع ، وعدم اتوجه اليه مباشرة لتصوره لنفسه كما هو . ولاننا نتصور هذه القطيعة ضيقة ، واخيرا لتعودنا كما يقول ابن خلدون بالتجريدات التي تنلغى بها عن الواقع . أو كما يقول « سارتر » ايضا نتخذ من الادب مادة قد تصلح للحديث عن انفسنا او عن الميتافيزيقا والسحر ، ولكنها ليست تليفا . ان عزلة الاديب عن المجتمع مزيفة من وجهين فهو يعرف ان العلاقة الحقيقية تقوم بينه وبين الجمهور ، ويتخذ الجمهور موضوعا ومادة لفنه ، ولكنه من ناحية اخرى يتوجه بادية وفنه الى امثاله من الابداء البعيدين مثله عن الجمهور . انه يمد يده من فوق القرون الى ادباء عصور الانحطاط ، ممن كان انتاجهم يكتسب طابع القداسة الكنسية ، ويولي ظهره للحياة . وهنا حتى عندما يكون الاديب ذا نزعة تدمية فانه يكون متمردا فقط لا ثوريا ، لانه لم يتوجه الى الشعب حتى ولو تحدث عن الشعب ، ومن ثم فان ادبه عاجز عن ان يجعل الشعب قادرا على تحرير نفسه ، لان المجتمع اذا حررته السلطة السياسية او السلطة العنوية ولم يححر نفسه بنفسه ، فانه لا يكون حرا . اما مشكلة امية مجتمعنا التي اتخذناها حجتنا الكبرى التي نتذرع بها في شرعية انقطاعنا عن المجتمع ، ولعل من اسبق من اثار هذه المشكلة عندنا هو توفيق الحكيم في كتابه ادب الحياة . فانه يجوز لنا ان نتساءل : هل الامية في الشعب حاجز حقيقي يبرر هذه القطيعة أخذ على ذلك مثلا من عندنا فسي الجزائر . في عهد الاستعمار كانت الامية عند الكبار والصفار والرجال والانات امية مطبقة وشاملة ، اعني امية في الكتابة والقراءة وامية في التفكير والنطق ، وامية حضارية عامة . وفي الثلاثينات تكونت عندنا وحدات مثقفة قليلة العدد ضعيفة العدة الفكرية ولكنها لم تلبث ان تجمعت واستت جمعية صغيرة ولكنها محرومة من كل الوسائل المادية مكبوتة من كل حرية في التحرك والعمل ، مسودق امامها كل السبل لكسب الرزق باعتبار اشخاصها مثقفين بالعربية ، ويعيشون في بلد العربية فيه معتبرة لغة اجنبية ، ولا حق لصاحبها فسي استعمالها في الحياة وكان يرأس هذه العصابة رجل نبع من اسرة ثرية

أولا : التأكيد على ضرورة الثقافة الفلسفية والاجتماعية العميقة .  
ثانيا : ان ينبع سياسة بلاده في الميدان الثقافي من المدرسه  
الابدائية انى المسرح والكتاب والمكتبة ، وكل ما يباع ويشترى  
ويتداول في سوق الثقافة في بلاده . وينتبع ما تنفقه الدولة في هذا  
المضمار بالقياس الى ميادين اخرى . لان هذا الجهود يتيح له من ناحية  
ان يتعرف بواسطة الاحصاء الى عدد الاميين والقراء ونوعيتهم ومن ناحية  
اخرى يساعده هذا الاصلاح على معرفة نوعية المثقفين في بلاده حاضرا  
ومستقبلا ، اي نوعية الجمهور الراهن ، وجمهور الغد ، كما يمكنه من  
السهر على توجيه الثقافة والتعليم في بلاده وجهة تهدف الى انتاج  
يتحسن باستمرار في الميدان الثقافي وذلك باعطاء رأيه في الصحف  
ووسائل الاعلام المتنوعة وفي توجيه الدراسات الثقافية والاجتماعية عامة .  
هذا الجهود لا اعتقد انه يتطلب قدرا كبيرا من حرية التعبير  
لكي يهتم به الاديب ويغطي فيه آراء بناء بعيدة عن التهم الذي يثير  
الملاحقة او ائتم حتى في اكثر الاقطار العربية ضغطا على الحريات .

ثالثا : يتنوع ما ينشر في بلاده من مجلات وكتب وصحف وبرامج  
اذاعية ومتلفزة وما يعرض على الجمهور من افلام سينمائية اجنبية  
او وطنية ، ويدرسها من ناحية الكيف والكم والصلاحية وسلامة  
الاتجاه وخصوصية المضمون الفكري والاخلاقي والفني .  
رابعا : يتنوع التجارب الثقافية في البلدان الاجنبية ، وما كان  
منها ناجحا او فاشا باحثا عن الطرق التي يستطيع ان يتبنى بها  
بعض نك التجارب في بلاده ويؤقلمها ويقترح ذلك في بحوث ينشرها ،  
وفي محاضرات يلقيها .

خامسا : من خلال هذا التتبع للواقع الثقافي في بلاده وخارج  
بلاده يستطيع الاديب ان يطرح مشكلة العلاقة بين انواع الثقافات التي  
تطرح في بلاده او تهيأ بها اجيال المستقبل : ما هي العلاقة بين  
التعليم الديني والتعليم الحر والتعليم الاجنبي ، وماذا سيكون تأثير  
كل ذلك في تكوين اجيال المستقبل ثقافيا وفكريا ، ويقترح من خلال  
تصوره لهذه العلاقات توجيهها مميئا يوفر به على اجيال الغد ما تعانيه  
اجيالنا الراهنة من فوضى فكرية واضطراب خلقي وتمزق ثقافي .  
ذلك ان من مهام الاديب تصور مشاكل الغد ، والعمل على تلافيها  
منذ اليوم ، حتى لا تخلق في مجتمع الغد نفس المشاكل التي يعانيها  
مجتمع اليوم الى جانب مشاكل اخرى سيرجعها عليه عصره .

ان الاديب مسؤول ايضا عن التفكير في ثقافة ما بعد عصره ،  
ونجاحه في تحقيق مجتمع منسجم في الغد يتوقف على مدى اقتناعه لكل  
القوى الحية في مجتمعه على اعتبار الثقافة شيئا ضروريا لا نحية المجتمع  
فقط بل ضروريا لحياة الدولة نفسها ، ولتوفير الانتاج الاقتصادي ،  
فضلا عن الرقي الحضاري ، وان الثقافة ليست لهوا او عينا ، كما  
يتوقف على المحتوى الذي نعطيه نحن الكتاب والمفكرين والادباء  
والباحثين للكتاب والمحاضرة والمقالة والفيلم .

سادسا : يفكر في الوسائل العملية التي يقترحها لتمكين الجمهور  
من التحصيل على اكبر قسط ممكن من الثقافة كتنظيم اوقات العمل  
والمواصلات ، ونوزيع المكتبات في الاحياء الشعبية وفاعات المسرح ،  
وتنظيم العمل للموظفين والعمال بشكل يتلاءم مع توفير وقت كاف لتنمية  
ثقافتهم ، ذلك ان الاديب الحق يجب ان يخلق جمهوره من العدم : لا  
بمادته الانتاجية المشوقة فقط ، بل وايضا بالعمل على تيسير الحياة  
للجمهور حتى يستطيع ماديا وزمنيا ومكانيا ان يستقبل الانتاج الثقافي  
الذي يقدمه له الاديب .

سابعا : ان لا يعتمد الاديب في خلق هذه الوسائل كلها على اقتناع  
السلطة السياسية او البلدية بضرورة توفيرها بل وهو يستطيع في  
الكثير منها ان يعتمد على المجتمع نفسه ، فيخلق فيه حساسية  
للتقافة تدفعه الى تاسيس الوحدات الثقافية وتجهيزها بالمجلات  
والاينات والكتب ومختلف وسائل التثقيف .  
وهذا ايضا يعتمد على مدى ما يستطيع الاديب ان يخلقه من وعي

محظوظة وكانت على علاقة طيبة مع السلطة الاستعمارية ، واعني به  
المرحوم الشيخ عبدالحميد بن باديس هذا الرجل واصحابه انفيون  
وجدوا انفسهم امام خيار ، ليس ثقافيا فحسب ، بل هو في الوقت  
نفسه خيار سياسي : اما ان يرضوا انفسهم تحت تصرف السلطة  
الاجنبية فيحصلوا على اسباب قوت مهين ولكن بوصد امامهم ابواب  
التبليغ الى الشعب واما ان يتوجهوا الى الشعب فيعيشوا معه في  
حرمان وتضحية واضطهاد ويثقفوه دينيا وسياسيا واجتماعيا ولكنهم  
يفتحون على انفسهم غضب السلطة الاستعمارية فاختراروا الحل الثاني ،  
وهم على بينة من امرهم . وهجر ابن باديس أسرته وزوجته بيبت ليلا  
في خلوة مسجد ويلقي نهارا معدل اربعة عشر درسا ويشرف على مجلة  
شهرية ويسير جمعية شبه سرية او مضمفوكا عليها ومراقبة من  
الشرطة الفرنسية ، ويكون المدارس الشعبية وانجيمعيات الكشفية ،  
ويتنقل من مكان الى اخر وهو في كل اتصالاته يعمل مع اميين او  
انصاف اميين ، ويحملهم المسؤوليات ، ويدربهم على تسيير جمعياتهم  
المحلية تسييرا ديمقراطيا فيما بينهم يعتمد التثوري وانكار الذات  
وتشجيع المخلص القوي الشخصية حتى ولو كان اميا . ونخرج مع  
مرور السنين من هؤلاء الاميين كتل من الناس ان بقوا اميين من حيث  
القراءة والكتابة الا انهم اصبحوا مثقفين في السياسة والتنظيم  
وتسيير المؤسسات الثقافية والاجتماعية والكثيرون منهم اصبحوا في  
الثورة المسلحة اقطار في مسويات مختلفة ، نستطيع ان نانسهم في  
اي ميدان فتجد تجاوبا وتشعر انك امام عقول ناضجة متفتحة مدركة  
لمشكلات الحياة المعقدة ، ولا تجد اي صعوبة في تلقيهم الافكار الثورية  
بل تجدهم يحاسبون المثقف على سلبه في الحياة واميته السياسية  
ولا ينظرون اليه نظرة القداسة الساذجة بل نظرة الند للند .

نعم هذه العصبية تعذب رجالها وشردوا وفضوا اجزاء كبيرة من  
عمرهم في المنفى والاعتقال ولكنهم كانوا دائما محاطين برعاية الشعب  
يجدون فيها عزاءهم ويستمدون منها قوتهم الروحية التي لا تقهر ،  
واستطاعوا ان يعطوا للشعب في ظل رقابة صارمة وقمع لا يرحم كل  
ما عندهم من معرفة دينية وادبية وسياسية واجتماعية ولم يشعروا يوما ،  
وان طالبوا بذلك سياسيا ، انهم في حاجة الى الحرية لكي يكونوا  
الشعب ويثقفوه ، او اعتبروا الامية حاجزا يقف بينهم وبين جماهير  
الشعب . بل توجهوا اليه مباشرة فايقظوا وعيه ، وتركوا سلطة  
الاستعمار بعد ذلك تتصارع مع ذلك الوعي كما اصبح الشعب هو  
الذي يقاوم الامية باشاء المدارس الاهلية والنوادي الثقافية  
والتشكيلات الرياضية والمسرحية والفنية . لقد ادركوا ان تكوين الوعي  
في الشعب بصير الوعي قوة مادية كما يقول ماركس .

واليوم نحن المثقفين في الجزائر المستقلة نستطيع ان نتصل  
بالشعب ونوظف وعيه الاجتماعي وندخل به في مرحلة جديدة من التطور  
الحضاري والرقي الفكري وفيه قطاعات واسعة تحررت من امية القراءة  
والكتابة ولكننا لم نبذل جزءا من مائة مما كان يبذله جماعة ابن باديس  
القليلة المضطهدة ، بل انقطعنا عن الشعب انقطاعا يكاد يكون كليا  
وانعكس هذا الانقطاع على مستوى الوعي السياسي والوطني عند شبابنا  
هبطوا نهبا للتيارات الثقافية الاجنبية ولا يكادون يعرفون شيئا عن  
شخصيتهم الثقافية الخاصة وتناقش في هذا الموضوع ونقوم بالمقارنة  
بين شباب الامس عندنا وشباب اليوم ونخرج بهذه النتيجة السلبية  
الوحيدة وهي ان شباب الامس كونه الاضطهاد الاستعماري ، وشباب  
اليوم اهدسته رفاهية الاستقلال .

على ان الاديب لكي يظلم بصبء هذه الرسالة ، رسالة التغيير  
الاجتماعي ، يجب ان يهتم بميدان اخر من الدرس ، يتمثل في الاهتمام  
والعناية والحرص ونظرته الى قضية وعي المجتمع نظرة شخصية تهتم  
هو في الدرجة الاولى قبل المعلم والسياسي ورجل الدين ، ومن ثم  
يبحث لها حتى عن الوسائل العملية التي تمكنه من الاضطلاع بها ، ولا  
يعتمد على احد فيها . هذه الوسائل يمكن ان تلخص اهمها فيما يلي:

في الجمهور بضرورة الثقافة لحياته كلها ، اي يتوقف على مدى ما نخلقه في الجمهور من الحس للفداء الثقافي حتى يصبح عنده في مثل اهمية الفداء المادي .

نأنا : هذا الجهد الذي يجب ان يبذله الاديب في تكوين نفسه وتكوين جهوده ، لا ندعي انه سيفير المجتمع ، او يحمله على تغيير نفسه بين عشية وضحاها ، ولا ندعي كذلك ان هذه الوسائل نفسها سيحققها الاديب والثقافة بسهولة ويسر ، بل ولا ندعي حتى اننا سنجد الحل الجزئي لهذه المشكلات ، ولكننا ندعي فقط انها مشكلات ووسائل جديدة بالعناية والبحث والتحليل والمواظبة وطول النفس . فقد لا يتوقف حلها على جيل واحد من الابداء والمفكرين ، ولكن الذي لا نشك فيه ان مجرد توجيه المجتمع الى التفكير فيها سيحمله يتولى بنفسه خلق هذه الوسائل بمجرد ان يتحقق لديه الوعي بقيمتها .

وما نريد ان نؤكد ايضا هو ان هذا التكوين الاجتماعي لخلق الجمهور المثقف المستهلك لادب الاديب ، لا يمكن ان نعتمد فيه على احد سوانا . فنحن الذين نعرف ان المجتمع الذي لا يستثمر ثقافيا هو خسارة للوطن وقوة ضائعة ، بل وتبذير غبسي واهمال اجرامي لامن ثروة في اي بلد ، وهي ثروة الانسان ، وذلك مهما كان نوع النظام السياسي القائم في بلدنا . ان الطائفة الاجتماعية التي تستثمر شيئا من الثقافة في مجتمعنا العربي الراهن هي فئة المثقفين انفسهم . وهي فئة صغيرة عديدا في مجتمع امي ثم هي عزلاء كفيضا ، لا تستطيع ان تقيم نهضة ثقافية واجتماعية فضلا عن النهضة الحضارية اذا لم يسندها جمهور واسع من مختلف طبقات الشعب .

ان الاديب يخلقه جمهورا متحمسا للثقافة واعيا لقيمتها يجعل المجتمع يغذي نفسه بنفسه ثقافيا اكثر مما تفعل الدولة مهما كان حكمها ديمقراطيا واطاراتها تقدر الثقافة ، واضرب لكم على ذلك مثلا من فرنسا حيث يتوفر الباحثون على الاحصائيات التي تساعدهم على التعرف الى وضعهم الثقافي، وحيث يتمكن الاديب من ارساء قواعد فنه الاجتماعي الصحيح : يقول جرار بيلوان في كتابه « الثقافة والمجتمع والشخصية » :

« ان نظرة سطحية على نظام التعليم عندنا قد نخدعنا بان كل الاطفال الفرنسيين يذهبون الى المدرسة ، ويجلسون على نفس المقاعد ، وهم متساوون في كل الحظوظ المدرسية : ولكن الحقيقة كما ندل عليها الارقام هي : ان من بين الف طفل من ابناء الموظفين الكبار واصحاب المهن الحرة يجتاز منهم الى المستويات العليا من التعليم ٥٧ طالبا ، ومن بين الف طفل من ابناء العمال يبلغ الى التعليم العالي ٣٤ طالبا فقط . والنوع الاول ينتج منهم وينتهي من التعليم الابتدائي في سن ١١ سنة ثلاثة اطفال من اربعة . ومن الطبقة الثانية ينتج في نفس السن طفل واحد من ثلاثة . والفرصة الى التعليم العالي تبدأ من هنا . اذ يترك التعليم الثانوي ٥٥ في المائة من ابناء الفلاحين ، و٤٢ في المائة من ابناء العمال ، و٤ في المائة من ابناء المزارعين ، و٣٢ في المائة فقط من ابناء الاطارات العليا » .

وقد تقولون ما دخل التعليم في اوضاع الثقافة وماذا يهم الاديب منها ، ولكن انظروا الى النتيجة التي تولدت عنها هذه الوضعية الاجتماعية بالنسبة للثقافة العامة واستهلاك الكتاب على وجه الخصوص ، يقول نفس المؤلف في هذا الصدد :

« ان كل ما يتعلق بالقراءة والمطالعة ومتابعة النشاط المسرحي ، وحسن اختيار ما يعرض من الافلام السينمائية او المتلفزة من برامج ثقافية للفداء الفكري - كل ذلك له علاقة مباشرة بقضية التعليم . اذ المدرسة تلعب دورا حاسما في تكوين البيول الثقافية التي تفرسها .. وتدل احصاءات ١٩٦٨ في فرنسا ان ٤٧ في المائة ممن عمرهم في سن ١٥ سنة واكثر لا يملكون اي شهادة مدرسية و٣٩ في المائة لهم الشهادة الابتدائية ، و٧ في المائة لهم شهادة البكالوريا . و٦ في المائة

اكثر من البكالوريا . فكان من نتيجة ذلك انه ما يزال الى اليوم في فرنسا اكثر من نصف الفرنسيين لا يقرؤون كتابا ، بل ان رئيس لجنة الشؤون الثقافية السيد «جولييان كان» قال : « ان فرنسا في ميدان قراءة الكتب ما تزال بلدا متخلفا » . وهذه الاحصائية تتناول الفرنسيين بصفة عامة . اما في اوساط الفلاحين والعمال فان نسبة من لم يقرؤوا كتابا واحدا في حياتهم تبلغ ٧٤ في المائة من العمال و٨٢ في المائة من الفلاحين » .

واخيرا يصرح نفس المصدر بان ٤ في المائة فقط من الشعب الفرنسي يهتم بالمكتبات العامة وان وزارة الثقافة في فرنسا لم تتكون الا سنة ١٩٥٩ .

هذا ما يجري في فرنسا بعد ما يقرب من قرنين من الثورة الفرنسية التي كونتها افكار الكتاب والادباء والمفكرين ولكن استولى عليها فيما بعد سيطرة السياسة وجعلوا مشكلة الثقافة تأتي في مؤخرة اهتماماتهم ، ولا يكونون لها وزارة خاصة الا منذ خمسة عشر عاما .

وكان ابن خلدون من قبل قد لفت انتباهنا الى العلاقة بين الادب والتعليم واستخلص ان ضعف الحياة الادبية في المغرب راجع الى ضعف التعليم في المغرب بالنسبة لما كان عليه في المشرق والاندلس .

اريد ان استخلص من هذا نتيجتين : الاولى ان تتبع اوضاع التعليم والمساهمة في توجيهها داخل في اهتمامات الاديب والتعرف الى اوضاع مجتمعه التي هو مطالب بمعالجتها وتصويرها في نفسه او بحوته .

الثانية ان الدولة قد تكون غنية ومزدهرة وذات اطارات مثقفة واسعة ، ولكنها مع ذلك تهمل العناية بتوفير الغذاء الثقافي للمجتمع ، وذلك لسبب بسيط هو ان المجتمع نفسه لم يشعر بالحاجة الى هذا الغذاء ولم يطالب دولته بتوفيره له . وهو لم يشعر بهذه الحاجة لان الاديب والمفكر والمثقف عامة لم يكون في المجتمع التحس لهذا الغذاء ولم يخلق فيه الشعور بالحاجة اليه ، كما كون فيه السياسيون الشعور بالحاجة الى الحرية السياسية وتكوين الاحزاب وتعدد الصحف حسب الاتجاهات والمصالح . ان الشعب الفرنسي ، واقصد اوسع طبقاته الشعبية ، ما يزال من حيث الشعور بالحاجة الى الثقافة قريبا من مرحلة ما قبل ثورة ١٧٨٩ .

فاذا كان الوضع الثقافي بهذه المثابة في بلاد تلقب عاصمتها بمدينة النور لانها عاصمة بلاد الثقافة في العالم ، فكيف يكون وضعنا نحن في البلاد العربية لو كتب لنا ان نطلع على هذا الوضع بطريق الاحصاء والتحليل ؟

ولكن ما نحن في حاجة اليه اليوم ليس ان نخلق حساسية في جمهورنا العربي للثقافة والادب ، بل ان نخلق نحن قبل ذلك حساسية في جمهورنا المهمل ثقافيا فلا تهتم به الدولة ولا يهتم به المثقف ، ان نشعر نحن بدرجة كافية من الوعي ان انساننا العربي ما لم يحصل على مستوى ادنى من التكوين الثقافي واليقظة الفكرية ، فلن تكتمل ادميته وهو من ثم ان يشعر بالحاجة حتى الى الحرية السياسية التي يطمح اليها المثقف وحده . وفي هذا خسارة لا على الانسان العربي وحده ، بل خسارة كذلك على الاديب نفسه ، انه يطالب السلطة السياسية بحرية التعبير او الحريات السياسية الكاملة ، ويفعل ذلك وحده وبدون سند من الشعب كانه يتدب حظه في الصحراء ، لان الشعب لا يشعر مثله بهذه الحاجة الى الحرية السياسية ، وهو لا يشعر بها لانه لم يستكمل انسانيته العقلية ، ان تفنينا اليوم ، ولو بصوت خافت ، بالحرية هو من قبيل تفنينا بالحب الشخصي والمناجاة الفردية لامية او حلم لا يهم المجتمع .

يجب ان نجعل من الحرية لا مشكلتنا نحن بل مشكلة المجتمع ، او مشكلة الاجيال القادمة . ولنعم في عملية النقد الذاتي لانفسنا نحن الابداء والكتاب اكثر من هذا : ترى لو اعطيت الحرية الفكرية اللازمة

اتحادانسا المحلية ، وفي اتحادنا العربي العام . ولنبحث لها عن الوسائل العملية والفكرية ونقبل في سبيلها ما هو ضروري من التصحيحة بالوقت والجهد وما نستطيع من المال ، وحتى ما يجب ان نتحملة من الضفط والحرمسان والاضطهاد . لان كل ذلك داخل في ثمن الحرية .

اننا اذا عشقنا الحرية وحدها دون ان نفكر في وسائل تحقيقها سواء بالنسبة اليانا كمتقنين وادباء ، او بالنسبة لمجتمعنا ، نكون كما قال جون دوي الامريكي ، قد برهننا على اننا ما زلنا على قدر كبير من البدائية ، واننا نعمد على عقلية السحر في تحقيق الاهداف ، والسحر قد يكون طبيعيا او تلقائيا ولكنه غير مباح في عصرنا ، لانه يعطل البحث الذكي ، وتضع الرغبة الانسانية والجهود الانساني في عيب لا طائل تحته ، والفكر السحري يتمثل في المواقف التي نرجو الوصول فيها الى نتائج دون سيطرة حكيمة على الوسائل، هذا الاعتقاد ما زال يسود ميداني الثقافة والسياسة ، فنحن نظن ان شعورنا القوي نحو شيء ما يكفي للحصول على النتائج المرجوة فيه، فنهمل العمل التعاوني الذي يجب ان يبين الظروف والمادية والوسائل الارادية . وهذا التعاون لا تؤكده الا الدراسة الدائبة عن قرب . ان هذه النتائج لا نستطيع الحصول عليها بوسائل لها القوة دون الفعل . . وفي مسألة الوسائل يجب ان نميز بين الادوات والوسائل ، فالمسامير والالواح والمشار والمطرقة هي ادوات لصنع الصندوق وليست وسائل . الوسائل تتم عندما يضاف الى هذه الادوات عمل فاعلي تستخدم به تلك الادوات في عملية معينة . ان الفراع واليد والعين هي الاخرى وسائل فعلية حين تقوم بعملية حيوية ، وهي تصبح وسائل تامة للعمل عندما تتلقى معونة خارجية عنها اي من المحيط ، فالعين تنظر الى لا شيء واليد تتحرك دون هدف . وكل هذه لا تصبح وسائل الا عندما تشارك في تنظيم عمل محدد للوصول الى اهداف محددة ترسمها ارادة الانسان » .

## دار الطليعة تقدم

### كيسنجر وصراع الشرق الاوسط

#### د . سعد الدين ابراهيم

منذ حرب تشرين اشتد لمعان اسم هنري كيسنجر في الشرق الاوسط والعالم العربي . وقد سبقت هذا اللعان هالة ضخمة احاطت بها الصحافة الغربية عامة والاميركية على وجه الخصوص . وقد تلقفت صحافتنا هذه الهالة ونفخت فيها بالزبد من المبالفة التي تسهلها لغتنا العربية بما عرف عنها من سخاء ، ويفذيها كتابنا بما عرف عنهم من خيال شرقي خصيب . وزاد من اسطورية هنري كيسنجر ما اخذ بعض القادة العرب يكيلون له من المديح والاطراء ، مع انه هو نفسه من راسمي ومنفذي السياسة الاميركية المعادية لمصالح العرب القومية . ويهدف هذا الكتاب الى دراسة شخصية هذا الرجل والعوامل المكونة لها ، واستراتيجيته وتكتيكة ودوره في حرب اكتوبر وازمة الشرق الاوسط، وذلك ضمن اطار منظور تاريخي وعقلاني شامل .

للاديب في البلاد الاشتراكية ، ولو لم يفرض عليه الالتزام نحو الطبقات الشعبية والمنايا بها في ادبه وفنه ، هل كان يتجه كل الادباء والفنانين ويتجنون في هذا الجهود الجماعي الذي استخرجوا به ثرات الطبقات الشعبية الفكري والفني من تحت غبار القرون ، وبعثوا فيه التجديد وابرزوا قيمة الانسانية وصعدوا به الى مستوى الفنون العالية الراقية وقدموه غذاء فكريا وثقافيا لاوسع الطبقات من الفلاحين والعمال ؟

لقد رأينا في مثال الاحصائيات الفرنسية حيث ترك الاديب حرا يهتم اولا بالشعب كيف كانت نتيجة الثقافة في المجتمع الفرنسي . واذا كان المثقف في البلاد الاشتراكية محروما من حرية الفكر ويشعر انه مستعبد للسلطة الحزبية التي توجهه وتضيق عليه الخناق ، فانه في البلاد التي يتمتع فيها بحريته المطلقة نظريا ، يشعر ايضا بأنه ابعد ما يكون عن ممارسة هذه الحرية عمليا. استقبلنا في مقر اتحاد الكتاب عندنا منذ بضعة اسابيع ادباء فرنسيين. كبارا من مجلة اوربية ، وناقشنا في موضوع حرية الفكر ، فقلنا لهم: انكم تعيشون في بلاد الحرية الفكرية بكل اشكالها . فابنسموا بأسم، واجابنا احدهم بقوله: تصورون اننا احرار، وهذه مجلتنا نقارب النصف قرن من حياتنا ، ولكننا الى اليوم لا نمك في ادارتنا اكثر من غرفة واحدة للراقة ، ونصف قاعة للجلوس نقتسمها مع محام فسي نفس العمارة ، هل تعرفون ماذا ؟ لاننا لم نترك لاحد السبيل الى استقلالنا في الدعاية ، اذن فانتم ترون ان الحرية لها ثمنها ايضا في البلاد المتقدمة . ثم ونحن لا حديث لنا فيما بيننا الا عن الحرية ، ولكننا لا نعالجها بصوت مرتفع ، ما هي الضمانات التي تؤكد باننا عندما نحصل نحن لا المجتمع على هذه الحرية سوف نستعملها في توعية المجتمع الى اوضاعه البائسة التي يجب ان يغيرها ؟ من يضمن اننا لن نقع فريسة عندئذ للاغراءات الكثيرة التي تجعلنا كما وقع للادباء الفرنسيين بعد الثورة ، نسخر ادبنا وفننا واقلامنا لخدمة المصالح السياسية والاقتصادية الحريضة فقط على ابقاء الاوضاع المناسبة لها على ما هي عليه ؟ ومن يضمن اننا لا نستعمل اليوم حرية المجتمع كسلاح لننال به حرية لانفسنا فقط ، حتى اذا تحصلنا عليها التخفنا، وهو واقع اليوم ، بصوف اصحاب الثراء والنفوذ في اسلوب حياتنا واهتماماتنا الفكرية نفسها ، ونسينا المجتمع لمصيره يصارع وحده بدون هدف كما عاش منذ مئات السنين ؟

ان الحرية الحقيقية التي نحن في حاجة اليها هي حرية انفسنا من انفسنا ، حريتنا من تقاليدنا الموروثة في فهم الثقافة ورسالتها ، والادب واهدافه الاجتماعية . حريتنا الحقيقية هي في ربطها بحرية مجتمعنا ، وحرية مجتمعنا هي عملية تحريره من الظلام الثقافي، وبالمعمل على الاتصال به فكريا ولغويا ، والعيش معه وعدم الانقطاع عنه الى الكتب والتفاؤل عن هوموه التي يحيها في عيشه اليومي وهو اقرب الى القرية منه الى الكائن الحي . وعملية تحرير المجتمع العربي ثقافيا هي ان نحمره قبل كل شيء من الوهم بأن ما يهمه هو الخبز بدون ثقافة واقناعه بان الخبز والكتاب مرتبط احدهما بالآخر . ونحن لا نلمي ان عملية التحرير سواء بالنسبة اليانا ام بالنسبة لمجتمعنا ستم بسهولة أو في اجل سحري ، وانما نزم فقط بأن عملية تحرير المجتمع الثقافي لا تتوقف على الدولة وحدها ، بل تتوقف على المجتمع نفسه في الدرجة الاولى ، وذلك بواسطة ما يكونه فيه الاديب من تحسس للفناء الثقافي ، ثم هي مسألة لا تخضع لقواعد معينة يمكن تطبيقها بصورة الية في كل اقليم من اقاليم وطننا العربي .

وانما الذي يمكن ان نشترك فيه جميعا هو ان نجعل من قضية المجتمع والثقافة قضية نفكر فيها وناقشها ونحلها باستمرار في